الترجمة بين الشعر والكتابة

أ. إبراهيم عبد السلام صافار
جامعة مصراتة

عَتبة:

مع مرور الزمن ودوران الأيام تنطلي اللفظة بعلائق معيّنة، تحجب معناها الأصلي في أصل الوضع والاستعمال، تارة تكون مجازاً جميلاً أو تشبيهاً بليغاً، يعقد أو يصنع علاقة ما؛ كتلك العلاقة بين وجه الحسناء الجميل ووردة على صفحة غدير، أو نهيم في سماح رجل فنراه كالبحر في امتداده أمام الناظر، وقد حفظت لنا قصائد الشعراء ما يكل الفكر عن مناشدة معناه. وتارة تحجبها فكرة منكفئة على نفسها تعكس ظلامية المفهوم؛ فيشقى الجسد بسادية الأنا تجاه الذات والآخر، ويسري وباء العزلة في رفاة الجسد الميّت، وقد كتب سدنة التاريخ ومورّثوه شيئاً من هذا عن منظور العرب للترجمة، فتجول بنا رحى الأفكار المنثالة عن المفهوم ما بين أصداء العبيق القديم، وأصوات الحاضر المعيش، تجعل من هذه المكاتبة مشوبة بالحذر والشكوك وهي تجوس خضاب الترجمة من خلال ما نثره الأسلاف. وقد قيل ترجمة الكلام توضيحه وتبيينه لما به من غموض ولبس.[1] ومذ ذاك الفهم والناس تحاول إجلاء وتوضيح ما يعتريه ويلحق به من مفاهيم تداولتها الأمم والحضارات عبر التاريخ.. مفهوم كهذا شاق وعسير لما به من طول الرحلة وعناء التعبير. وستنحصر المكاتبة في إضاءة منظور الترجمة عند العرب وتحديداً رأي الجاحظ، حيث أطبق الناس على أنه يضع لها شروطاً غاية في الدقة، والقسوة تقاس بما وصل إليه علماء الغرب في العصر الحديث[2]. ويمنع ترجمة الشعر، وأنه لن تجد البتة مترجماً مثل

1- ينظر: المعجم الوسيط – مجمع اللغة العربية – الطبعة الثالثة المجلد الأول مادة (ترجم) ص 87.

2- حيث نقرأ: منذ القرن الثالث الهجري، اشترط الجاحظ بالمترجم أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة، وأن يكون اعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية. ولقد حظيت شروط الجاحظ هذه ولا تزال تحظى باحتفاء باهر من قبل المترجمين والمهتمين بشئون الترجمة. ينظر: (الترجمة وشروطها.. من فضاء الجاحظ إلى فضاء النظرية الأدبية الحديثة). جريدة البيان- الأحد 7 جمادى الآخرة 1422هـ 26 أغسطس 2001 – العدد85.

واضع الكتاب، ويفيه حقه مثل مؤلفه بما يوحي باستحالة الترجمة، وهذا ما يفرض على المكاتبة قيد العمل على اتجاهين متداخلين يهتم الأول بالجانب الخلوصي (السلوك الكتابي) عند الجاحظ بغية التفريق بين منقولات ونصوص الجاحظ بهدف سبر منظوره للترجمة. ويهتم الثاني بمراجعة بعض الأغاليط السابقة حول المفهوم، وهي إذ ترد في الهوامش فعلى سبيل الذكر لا الحصر. وهو ما نحاول تفنيده بناء على هذه المكاتبة.

المُفْتَتَح:

في مثل هكذا مناخ يميل اللسانيّون إلى البداية من الدرجة الصفر في الاشتغال الكلامي وخاصة التواصليّون منهم، حيث يبدأ النظر في الحدث الكلامي من خلال مثلث تواصلي معيّن، ويمكن إسقاطه على مثال: (الكاتب – الكتاب – المكتوب إليه)، وهو مثلث يحاكي ويقابل مثلث (جاكبسون) (المرسل – الرسالة – المتقبل)، أو مثلث (بوهلر) (التعبير – المعنى – الإقناع والانفعال).[3] وهي مثلثات سيميولوجية لسانية يتم الرجوع إليها عادة لبناء تواصل أو اشتغال علمي منظم.

يمثُل النص بقصدية منتجه بواسطة نصيصات تكوّن أخطبة صغيرة تتآلف عبر أنساق معيّنة لصناعة الخطاب الكلي للنص. هذا القول أو الملفوظ الذي يحاول الفاعل من خلاله التعبير عن شيء ما في مكان ما وزمان ما ووسط محيطٍ ما. ولضبط هذه العملية تحت مسمّى الكتاب نحاول إرجاع الحدث الكتابي إلى أصله وفصله وفق زمانه ومكانه الذي وقع فيه فعل الكاتب، وذلك بإسقاط هذه العملية أو الترهينية (وهي ترهين خطاب الكتاب بزمانه ومكانه ومحيطه) من خلال طرفيه المتقابلين الكاتب والمكتوب إليه.[4]

3- ينظر: مجلة عالم الفكر العدد 1 المجلد 30 يوليو سبتمبر 2001م –الكويت– دراسة بعنوان (الحجاج والاستدلال الحجاجي: عناصر استقصاء نظري)– أ. حبيب أعراب. ص 101.

4- يؤكد د. سعيد يقطين على بناء النص الخارجي بقوله: "تتصارع خلفيات معينة وفق استراتيجية معينة. فالكاتب وهو ينتج نصه يتصوّر قارئا معينا، وفي خلفيته نصوص عديدة يحولها ويبنيها في إنتاجيته الخاصة، والقارئ كذلك وهو يقرأ نصا، يدخل إليه مجهزا بتصورات قبلية عن النص من خلال هذا التفاعل البنائي على مستوييه الداخلي (الكتابة) والخارجي (القراءة) يتم انفتاح النص وانغلاقه، فقد ينفتح نص تقليدي على خلفية نصية تقليدية فيحصل التواصل وتتعمق القيم التي يحملها النص ككتابة والتلقي كقراءة. وقد ينغلق نص جديد على

بداية لابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط الرئيسية ومن خلالها يتمكّن القارئ من الدخول إلى مقول الجاحظ ومتابعة ما انتوت المكاتبة أن تتلمّسه. فقد عاش الجاحظ وترعرع في بيئة – غير طبيعتها الجدلية – تعاني من تغيرات وتبدلات اجتماعية، وثقافية ومعيشية، وكانت هواجس الملفوظ والمكتوب، الملحون والفصيح، المتضاد والمتفق إضافة إلى الخوف من العمل بالرأي واتباع الهوى بالنأي عن الرأي الجماعي من بين الهواجس الكبرى، لتلك الحياة الثقافية، التي شكّلت وبنت ذوات المبدعين، والمفكرين، ومنظّري تلك الحقبة، والجاحظ أحدهم، كان له موقفه الطبيعي، والخاص انطلاقاً من قدراته الفطرية والقرائية الكثيرة، التي ساهمت بشكل من الأشكال في صياغة مفاهيمه المبثوثة في كتابه قيد العمل، وبقصد التذكير بخصوصية الموقف الجاحظي من تلك الهواجس الثقافية،[5] ومن ثمّ فمن الطبيعي أن يكون تعامل الجاحظ –برغم نقولاته– مرتبط بمنهجية صارمة فرضتها نزعة منهجية قَسْرية، وكذلك فرضتها حدة الخلافات الفكرية، والنزاعات العقائدية، والجدلية السائدة في أوساط المجتمع الثقافي، والمحيط العربي والإسلامي بالجاحظ مما جعل منه يتكلم كحالة دفاعية، بضمير المخاطب لذلك المجهول المستعد لنزاعه ومحاربته، ومحاولة تثبيطه.

ومن خلال تتبع الجاحظ مع نصوصه ونقولاته، وطريقة صوغه، وسبره لأغوار القضايا، يتبيّن لنا موقفه بعض الشيء من ملفوظاته المكتوبة، التي تبدأ عادة بألفاظ دقيقة وواضحة تعبّر عن حضور المتكلم، مثل (أقول – وجدنا – جوابي في ذلك – ولو قلت)، ومنقولات منسوبة إلى أصحابها، رواها ضمن كتابه وعبر عن موقفه منها، وعلى سبيل المثال إذا أراد تهميش أو تتفيه نقل معين، يستخدم ملفوظ (زعم). أو يرويها بملفوظ يتدرج في طرائق الرواية: (قال – وجدوا – قالوا – قال القوم) تاركاً المروي على علّاته خلْف ضمير المخاطب، (جنبك)، و (تقول)، و (ولو قلت). ومن خلال الإدراك السابق نعيد قراءة الكتاب.

يبتدئ من أول السطر: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً"[6] بمفتتح دعائي يتكلّم فيه لقارئ مفترض، ويُعَبِّر بالدعاء من خلال صيغة المخاطب بهذه البنية الدُّعائية

خلفية تقليدية فينتج عدم التواصل ويتم التموقف السلبي من هذا النص". انفتاح النص الروائي – المركز الثقافي العربي – الطبعة الثانية 2001م، ص76.

5– ينظر: الملل والنحل – لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني – دار المعرفة بيروت. وينظر: أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري – د.عبد الحكيم بلبع – درا نهضة مصر للطبع والنشر.

6– البارع في الأدب والجامع في حكم العرب مرجع سابق ج1، ص31.

والافتتاحية المبطنة، والمناوئة لقارئ الكتاب الخصم المفترض مع ما فيها من إيقاعية السجع، وقصر الفقرات، وترميز للمعاني المميّزة بحضوره خلف ضمير المخاطَب إلاّ أنّ هذا الكمون، لم يقضِ ما في نفس الجاحظ، مما جعله، يخرج إلى الخطاب المعلَن والمباشر بعد سطور قليلة بقوله: "ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوب في أمرك"[7] ويوجّه حديثه مباشرة لخصمه المفترض، الذي عاب عليه كل كتاباته السابقة، واستمر سرد الجاحظ لأماكن، ومواطن التعييب التي نالها كتابه هذا، أو سابق كتبه، وكذلك التعييب على مواقفه الفكرية، في ترتيب لا يخلو من دقة التجريد ، حيث يقول: "ثم قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، ثم طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغاية التي إليها قَصَدنا"[8]. ليخلُص من ذلك إلى مناقشة عميقة لأوجه التعييب الحاصلة لكتابه، ومن خلال استعراض بسيط، لأشكال التعييب البائنة من حشود ألفاظ الجاحظ وفق الأنساق المترتبة كالآتي:

أ- التصغير من قدره: تقييمي

ب- التهجين لنظمه: شكلي

ت- الاعتراض على لفظه: تركيبي

ث- التحقير لمعانيه: دلالي

ج- الطعن في غرضه: أيدلوجي

وعبر ذلك ندرك طبيعة الترتيب المتميز، والحاضر في ذهنية الجاحظ، والواعي بكافة المخالفين له، ولآرائه بطبيعة التنظيم المتميز بالخصوم. التي تجعله يغيّر من طرائق تعبيره وأسلوبيته في الكتابة مما يدنيه ويقرّبه بقوة من الخطاب اللفظي الحجاجي كخطاب يتوفر على خاصّيات بنائية تجعله مختلفاً عن غيره من الخطابات: السردية والحكائية والإخبارية.[9] وأيضاً يأخذ من هذه الأنماط الخطابية ويستقي منها ما يساعده ويزيد من قوة دفوعه وحجاجه.

المسْلَك:

نسلك بشكل مبدئي لئلّا يتحوّل تعاملنا مع النصوص، والنقولات الجاحظية بطريقة خاطئة، سنفترض مبدئياً أن العمليات الخالطة للأسماء ومعانيها، الجدّ والهزل، والحكمة وعكوساتها، التي

7- نفسه.

8- المرجع السابق: ج1، ص34.

9- ينظر: مجلة عالم الفكر. دراسة بعنوان (الحجاج والاستدلال الحجاجي) مرجع سابق. ص 101.

يطلق عليها كبار النقد والأدب (الاستطرادات) المعيبة، ومن المآخذ على تأليف الجاحظ.[10] قد تمت وفق إرادة واعية من مؤلفها، وللمقالة في ذلك شواهد إثباتية عديدة، ومن أهمها:

1) تصريح الجاحظ في أكثر من موضع بأنّ كتابه جمع فيه بين الجد والهزل، وبين الحكمة والسخف.
2) تصريحه في أكثر من محل بصعوبة الحكمة الخالصة، وانصراف الأنفس عنها، ولابد من ضرورة الخلط أو المزج للترويح.
3) تصريحه بأنّ هذا الكتاب خرج عن مواقع الخلاف بين الفرق الإسلامية المختلفة، وأنّ كل صاحب غرض يجده فيه. مما يجعله يحمل بين طيّاته خطاباً به من العموم ما يجعله عالمياً.

ولكي يتمكّن من تحقيق ما تقدّم ذكره انتهج الجاحظ منهجَ الراوي بين الحين والآخر، وهو في طريقة صوغه منساق مع ثقافة نصوصه وعصره، حيث يقوم بإيراد النصوص المتضاربة، والمشكّلة بلا شك إثراءً متميزاً من خلال طرحها بموضوعية بعيداً عن التدخل لفرض الرأي، الأمر الذي جعل احتمال عدم الفهم، والتصور العكسي وارداً لأغلب من يحاول متابعة، وبحث نصوص، ونقولات الجاحظ المضمّنة داخل الكتاب مناط العمل. وهذا الخلط، والفهم الخاطئ يصل إلى مرتبة الظاهرة، أو السِمة العامة للكثير من الدارسين والبحّاث المحدثين.[11] ومثل هذه

10- يعتبر الدكتور بدوي طبانه: أن السمة الغالبة على مؤلفات الجاحظ هي ابتعاده عن المنهج العلمي الذي يحرص على حصر الموضوع وتنظيم البحث وتقسيمه واستيفاء الكلام في أجزائه جزءاً جزءا. ينظر : دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث –الناشر مكتبة الأنجلو المصرية – الطبعة السابعة سنة 1975م. ص 180.

كما يرى الأستاذ: عبد الفتاح كيليطو أن الجاحظ غير قادر على إنشاء كتاب، وأنه كاتب يبدو غالبا بلا موقع وبلا مأوى، وقد استخلص هذه الأحكام بناء على مقاربة لامس فيها مقول الجاحظ لكنها غير مدركة لبنيته العميقة ودعواه النصية التي سبق تقريرها. ينظر: مجلة فكر ونقد العدد (22). دراسة بعنوان بين الفلسفة والشعر المنشورة على صفحات منبر الدكتور محمد على الجابري على الشبكة العالمية.

11- ومن نفس المكْمَن يقع د. عبد السلام المسدّي في كتابه المعنون بـ(التفكير اللساني في الحضارة العربية) تحت طائل نسبة للجاحظ ما ليس، بقوله: "فهو إذ يتحدث عن الترجمان يؤكد" ويعني الجاحظ، مستشهداً بالنص التالي: "متى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين علمنا أن قد أدخل الضّيم عليهما". حيث ابتنى قانون أو معادلة التناسب الطردي على نصوص مقطوعة من سياقها الخطابي لأنه رأي منقول، لآراء خصوم الكتب الطاعنة في الكتابة عموماً، وفي الترجمة خصوصاً، وقد أورده تحت مقول أنصار الشعر، ففسّر على ضوئه ما فسّر. ينظر: ص233 وما بعدها.

الممارسات اللغوية الاستدلالية المبثوثة في ما يمكن أن نطلق عليه مقدمة الكتاب، تُنبي عن عمق المنظور الجاحظي، وشمولية رصده للظواهر التعبيرية.

وبعد تعديده آليات البيان من خلال نقولات طويلة لرصد علاقة قائمة بين المنظومة الكتابية والمنظومة الشفوية، باعتبار الكتابة آلة بيان مُمَيّزة مع تماهي الاعتبار بأفضلية بيان الشعر، يمارس فعل الخلوص والتسريب مقدّماً بحاجة الأمم، والأجيال المتعاقبة في استعمالها للأنظمة العلامية المرئية المكوّنة من النقوش والرسوم والأختام لتحقيق النظام واستمرار الوجود. ويخلص لمناقشة هذه المقارنة مؤكداً على المنفعة الحاصلة للأمم من استعمال هذه الأنظمة المرئية.

ولتوضيح هذه المحاورة ذات الطابع الحجاجي بشكل إجرائي، وأكثر دقة ننقلها كما وردت في كتابه (البارع) متتابعة ومتواصلة من المجلد الأول الجزء الأول ومن الصفحة (65) إلى الصفحة (71)، وليست مقتولة بعناوين فرعية، ونعرضها في شكل متون مذيلة بحواشي توضيحية، ونقحم العناوين المضافة على المتن، وقد تمّ تمييز العناوين المستحدثة بوضعها بين أقواس، وأيضاً بتغميق لونها وجعلها أكثر سواداً، ووضعها تحت خط حتى يشعر القارئ بحجم الشرخ، ويعيش حالة التمويه التي تعيشها المحاورة، ومن خلال ذلك نستطيع الوقوف على أعتاب وسبر مفهوم الترجمة كما ورد في كتاب الجاحظ. وهي كالآتي:

المتن (1)

وليس في الأرض أمّة بها طرق أو لها مسكة ولا جيل لهم قبض وبسط إلاّ ولهم خطّ فأمّا أصحاب الملك والمملكة والسلطان والجباية والديانة والعبادة فهناك الكتاب المتقن والحساب المحكم ولا يخرج الخطّ من الجزم والمسند المنمنم كذا كيف كان ذلك.

حاشية(1)

بينما ورد المقطع السابق في نسخة الأستاذ: عبد السلام محمد هارون في الجزء الأول الصفحة (71) تحت العنوان: **(الخط والحضارة)** مع اختلاف في نهاية المقطع كالتالي : "ولا يخرج الخطّ من الجزم والمسند المنمنم والسمون كيف كان ذلك قال [ذلك] الهيتمُ [ابن عدى]، وابن الكلبي.

(تخليد الأمم لمآثرها)

[قال]: فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها".

كما ورد في الهامش حول كلمة (السمون) وتحت الرقم (4) "بدله في ط ، س : "كذا" ويبدو أنها من النساخ". ونلمس من خلال المعقوفتين في مثل [ذلك] و[ابن عدى] و[قال] أنها كلمات مزيدة على المتن بأمانة علمية صادقة. وبالنظر في كلمة (ذلك) المقحمة على النص نجد لها تأثيراً وتسلُّطاً على النص لوقوع الكلام المتقدم عليها تحت معنى الإشارة، إذ تشير إلى المقول المتقدم من خلال موقعها بين الفعل وفاعله، كما هو واضح، ومفهوم من النص؛ وازداد الطين بلة مع زيادة كلمة (قال) في بداية المقطع المعنون بـ(تخليد الأمم لمآثرها)، ودون إشارة في الهامش لأسباب الزيادة، ليتشابه مع أخطاء النساخ، لكن طرح المتن بهذا الشكل يُخفي معالم المحاورة التي ازداد طمسها في نسخة الأستاذ : محمد باسل عيون السود كما ورد في الجزء الأول. ص(51) على النحو التالي:

"ولا يخرج الخطّ من الجزم والمسند المنمنم والسمون كيف كان ذلك قال ذلك الهيتمُ بن عدى، وابن الكلبي.

قال: فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها".

ودون أي إشارة لأي خلل، أو سقط، أو اختلاف اعترى النسخ المخطوطة المقام عليها التحقيق، وعلى أي أساس قد صار. وقد غيّر بعض كلمات وأماكن العناوين الفرعية، وحذف المعقوفتين وأثبت ما بينهما، وصار يقيناً أنّ الكلام المتقدّم هو قول منسوب إلى (الهيثم بن عدي وابن الكلبي)، كما هو واضح من خلال الاستشهاد؛ فتحوّل الكلام عن معناه المشار إليه، وعملت هذه التدخلات على تمزيق الخطاب الداخلي للمتن، وتضييع سياق المحاججة أو المحاورة.

وعلى ما أثبتناه في المتن المتقدم الخالي من تدخلات المحققين، يمكن القول بأنّ المؤلف يمارس فعل الخلوص؛ بما يشبه التمهيد المسبق للمحاورة ذات الطابع الحجاجي المرتفع. وبهذا المدخل ندخل سياق المحاورة. كما سيلاحظ القارئ في المتون القادمة وجود ثلاث نقاط (...) إشارة إلى الحذف خوفاً من إطالة النقل، وأيضاً وجود العناوين المضافة على المتن مميزة بعض الشيء وتحتها خط كشاهد ملموس على زيادتها، وأثرها في تغيير معنى النص على ما سيتبيّن تباعاً فيما بعد.

المتن (2)

قال الهيتم وابن الكلبي وأبو عبيدة (**تخليد الأمم لمآثرها**) فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال (**تخليد العرب لمآثرها**) وكانت

العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى... قال ولذلك لم تكن الفرس تبيح شريف البنيان كما لا تبيح شريف الأسماء إلاّ لأهل البيوتات كصنيعهم في النواويس والحمامات والقباب الخضر والشرف على حيطان الدار وكالعقد على الدِّهليز وما أشبه ذلك.

حاشية: (2)

يمكن للقارئ ملاحظة مواقع العناوين المُقحمة على النص مع ما تقوم به من قطع رحم النص ولحمته، وعند قراءته متتابعاً؛ نلحظ أنه كان يسلك أبواب المناقشة بنقل آراء (الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة) حول الطرق التي تعتمدها الأمم لتخليد مآثرها ومناقبها، حيث يروْن أنّ العرب أرادت أن تخلد نفسها بالشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذلك ديوانها على خلاف الحضارات والأمم الأخرى، التي خلدت نفسها بالبنيان والقصور.

المتن: (3)

فقال بعض من حضر كتب الحكماء وما دوّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات والآداب والأرفاق من القرون السابقة والأمم الخالية ومن له بقية أبقى ذكراً وأرفع قدراً وأكثر ردّاً لأنّ الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها وأحسن في الأحدوثة لمن أحبّ الذّكر الجميل **(طمس الملوك والأمراء آثار من سبقهم)** والكتب بذلك أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر لأنّ من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ... وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشامات لبني مروان **(تاريخ الشعر العربي)** وأمّا الشعر فحديث الميلاد ... قال وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين والحكم في الصناعات وإلى كل ما أقام لهم المعاش وبوب لهم أبواب الفطن وعرفهم وجوه المرافق حديثهم كقديمهم وأسودهم كأحمرهم وبعيدهم كقريبهم والحاجة إلى ذلك شاملة لهم **(صعوبة ترجمة الشعر العربي)** وقد نقلت كتب الهند ... وكنا آخر من ورثها ونظر فيها فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البنيان والشعر.

حاشية: (3)

بعد نقله اتفاق (الهيثم وابن الكلبي وأبوعبيدة) بخصوصية الشعر وشرفه، وتميّز العرب به على ما تقدّم، ينتقل لنقلِ رأيٍ آخر يناقض المعنى السابق؛ بهدمه على لسان بعض الحكماء، ويشرع أنصار الكتابة في الرد والتأكيد على أنّ الحكمة أنفع لمن ورثها من جهة الانتفاع بها،

وهي بذلك أي الكتب أولى من بنيان الحجارة وحيطان المدر؛ لأنه يلحقها الدمار والتخريب ومآلها إلى السقوط. والشعر لا يمكن أن يخلّد العرب؛ لأنّ العرب أمة سابقٌ وجودها على وجود الشعر الحديثِ الميلاد، وفضيلته مقصورة على العرب، ومن تكلم بلسان العرب، ولا يستطاع أن يُترجم، ولا يجوز عليه النقل خلافاً للكلام المنثور مثل كتب الهند، وحكم اليونان وآداب فارس، التي عندما حوِّلت إلى العربية بعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً. وهذا هو الرأي المشهور والمنسوب إلى الجاحظ والقاضي بضياع إيقاع الشعر العربي بسبب الترجمة.[12]

بينما هو رأي الرافضين للشعر كمنظومة بيانية قادرة على تخليد العرب؛ مدللين على ذلك بقصر عمره، واقتصاره من حيث وزنه على العربية، وتحوّله إلى كلام منثور، ومن ثمّ مقارنته بكتب الحكمة للأمة المترجم إليها، والمنافع المختلفة القابلة للترجمة، وأنّ الشعر لو حوّل إلى لغة أخرى لما وجد فيه ما يميّزه عمّا عند الأمم الأخرى ناهياً رأيهم بالتأكيد على أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر من البنيان والشعر.

المتن:(4)

(قيمة الترجمة) ثم قال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له إنّ الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم ... ومتى كان خالد مثل أفلاطون **(شرائط الترجمان)** ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها حتى يكون فيها سواء ومتى وجدناه أيضاً تكلّم بلسانين علمنا أنه أخل الضيم عليهما... ولن تجده البتّة يفي بواحد من هؤلاء العلماء **(ترجمة كتب الدين)** هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل بما يجوز عليه ممّا لا يجوز عليه ... وذلك أنّ نسخته لا يعدمها الخطأ ثم ينسخ له

12- وعلى سبيل المثال ورد في جريدة الرياض السعودية: يوم الخميس 24 محرم 1424العدد 12697 السنة38 هذا العنوان (لنترجم الشعر نكاية في الجاحظ) الذي كان تغطية إعلامية لأعمال ونشاطات نادي جدة الأدبي حول الترجمة. وفي ثنايا التغطية ورد فيها ما ورد عن الجاحظ وعليه بناءً على الرأي المنسوب إليه، الذي نثبت خطأه في هذه المكاتبة، ويكفي الإشارة إلى عنوان التغطية، بما فيه من العدائية تجاه الذات مع سوقية الملفوظ. كما أنها تُروّج للقطيعة مع التراث وتطال حتى المؤسسة الثقافية من خلال تموقعها كعنوان لتغطية حدث ثقافي في صحية رسمية، ناهيك عما بها من كونها كلمة نابية لا تمت إلى القاموس العلمي والأدبي بصلة.

من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة ثم لا ينقص منه ثم يعارض بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله ، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته **(مشقة تصحيح الكتب)** ولربّما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة ، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص... فما ظنّكم بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد وتتعاوره الخطاط بشر من ذلك أو بمثله كتاب متقادم الميلاد دهري الصنعة **بين أنصار الكتب وأنصار الشعر** قالوا: فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى.

حاشية: (4)

يدير دفة الحوار لأنصار المنظومة الشعرية، الذين يطعنون في الترجمة عموماً بكونها ومن وجهة نظرهم أي الكتابة لا تؤدي ما قال الحكيم أبداً، وهدفهم من ذلك تعميم صعوبة الترجمة على جميع أنواع الكلام والأجناس الأدبية، والعلمية للوصول بها إلى استحالة الترجمة الكاملة عموماً لا الشعر فقط. وقد اشتهرت هذه الآراء والمفاهيم التي تدور حول الترجمة، وتم اعتمادها وفق شروط ومعايير للترجمة ومنسوبة للجاحظ أيضاً.[13] وهي معايير في غاية القسوة والشدة ومناقضة لما سبقها؛ إذ وردت في سياق أو أسلوب حجاجي درجته عالية جداً، هدفه التعميم وإخراج الخصم المتلقي، والمقصود بالخطاب من أطره ونظامه ودفوعه؛ لأنه في حالة دفاع عن فقدان خاصية الإيقاع، أو البحر في الشعر العربي بفعل الترجمة، التي لا يمكنها أن توجد له معمار إيقاعي يحاكيه في اللغات الثانية. ويختم رأيهم في صيغة سؤال موجه لأنصار الكتب: فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى.

المتن: (5)

قال الآخر إذا كان الأمر على ما قلتم والشأن على ما نزلتم أليس معلوماً أنّ شيئاً هذه بقيته وفضلته وسؤره وصبابته وهذا مظهر حاله على شدة الضيم وثبات قوته على ذلك الفساد وتداول

13- ينظر: (الترجمة وشروطها.. من فضاء الجاحظ إلى فضاء النظرية الأدبية الحديثة). أ. ثائر ديب. جريدة البيان- الأحد 7 جمادى الآخرة 1422هـ 26 أغسطس 2001 -العدد85. كما ينظر: علامات ج48 . م12. 12 ربيع الآخر 1424هـ - يونيه 2003. دراسة بعنوان: معايير متقدمة حول الترجمة في النقد القديم. للكاتب: محمود إسماعيل عمار.

النقص حري بالتعظيم وحقيق بالتفضيل على البيان والتقديم على شعر إن هو حول تهافت ونفعه مقصور على أهله وهو يعد من الأدب المقصور... فأمّا فضيلة الشعر فعلى ما حكينا ومنتهى نفعه إلى حيث انتهى بنا القول وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة... وعمل الحرّاقات واستخراج شراب الداذي وعمل الدّبابات **(ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل)** وكان الحجاج أول من أجرى في البحر السفن المقيرة المسمرة غير المخرزة والمدهونة والمسطحة وغيّر ذوات الجؤجؤ وكان أول من عمل المحامل ... (وقال القوم) لولا ما عرفوكم من أبواب الحملانات لم تعرفوا صنعة الشبّ ولولا غَضار الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغضار... وكذلك جميع ما تهيّأ لكم ولستم تخرجون في ذلك من أحد أمرين إمّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علم ما أورثوكم وإمّا أن يكون ذلك تهيّأ لكم من طريق الاتفاق **(الجمازات** وقد علمتم أنّ أوّل شأن الجمازات ... وكذلك لا يخلو جميع أمركم من أن يكون اتفاقاً أو اتّباع أثر.

حاشية (5)

يعود لأنصار الكتاب حيث يصفون البنيان بالنقص الدائم، والبِلى مع قصور فائدة الشعر على العرب، وهو من الأدب المقصور وليس بالمبسوط، ولا يمكن لهما أي البنيان والشعر أن يخلدا أمّة من الأمم، وإنما تخلّد الأمم بما دوّنت في كتبها من علوم الحساب، والطب والمنطق والهندسة مؤكدين بذلك فضل الكتاب عموماً في كل المجالات. ويختم بأفضلية الأمم السابقة على الأمم اللاحقة بالاستفادة مما توصّلوا إليه من خبرات.

المتن: (6)

(الترغيب في صناعة الكتاب) (ثم رجع بنا القول إلى الترغيب في اصطناع الكاتب والاحتجاج على من ذرى على واضع الكتب) فأقول إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم ومضارهم ومنافعهم أن يُحتمل ثقل مئونتهم في تقويمهم وأن تتوخى إرشادهم وإن جهلوا فضل ما يسدى إليهم فلن يصان العلم بمثل بذله ولن تستبقى النعمة بمثل نشره... وليست في الكتب علة تمنع من درك البغية وإصابة الحجة لأنّ المتوحد بدرسها المنفرد يفهم معانيها لا يباهي نفسه ولا يغالب عقله وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب.

حاشية: (6)

ينهى المحاورة بين الطرفين بعد أن طرح وجهة نظرهم، وحججهم ودفوعهم كبنيتين متضادتين لينتقل مع مقولات أهل المنظومة الكتابية معلناً عن نفسه معتبراً المعرفة نعمة وبقاؤها في نشرها، والعلم في صيانته، وعلى المعلمين أن يحتملوا ثقل المتعلمين حتى يحاربوا الجهل فيهم، موضحاً عيوب التلاقي بما فيه من عقد الوجوه في النقاش المؤدي إلى حب الغلبة؛ التي تحرّك شهوة المباهاة مع التكبر والأنفة في الرجوع عن الرأي الخطأ، ويظهر التباين والاختلاف في الآراء بين المتناقشين فتعمى القلوب والعقول عن موضع الدلالة، وكأني به هنا يعرّض بعدم تفاهم الفريقين، وتمسّك كل منهما برأيه مع المغالاة في الحجج والدفوع بسبب الحوار المباشر، مرغّباً بعد ذلك في صناعة الكتاب والعمل الكتابي، موضحاً دوره في العمل التعليمي من حيث نفعه كمعلم فردي مغنٍ عن التعامل المباشر مع المعلّمين وعقدهم وتكبرهم.

الخلاصة..

يجدر بنا الإشارة إلى أنّ ما تبيّن في السطور المتقدمة ليس ضرباً من الكهانة والتّخمين، أو شيئاً من التحليل العميق المعنى، والصعب المنال، إذ لا تحاول القراءة استحضار شيء غائب بناءً على ما هو ماثل، وإنما كانت قراءة متحررة من الأفكار المسبقة، والأهمّ من ذلك أنها لم تقرأ عن الكتاب بقدر ما هي تقرأ فيه، والغريب في موضوع الترجمة عند الجاحظ أنّ الرأيين في حقيقتهما متناقضان، ولا يجتمعان بحال من الأحوال في شخص واحد، والأغرب من ذلك ما جرى من اجتماعهما على أقلام المورّثين في منطقة وسطى بين أنصار الشعر وأنصار الكتابة؛ مما يدل على تكرار واجترار بعض الدراسات، وأنها تنقل عن بعضها، وتخلّد على نفسها شهادات لا يحققها الامتحان بالرجوع إلى المصادر والموارد في مضانها، حيث تبيّن أنّ الجاحظ كان ينقل محاورة دقيقة بين نظامي التواصل اللساني بنوعية الشفوي والمكتوب، وأيهما أقدر على تخليد الأمم والحضارات، في شكل حوار بنيته العميقة ودعواه النصية قضية الخلود، وعكس من خلال بُناه السطحية الحال التداولي والواقع الثقافي، وما كان يعتمل في عقول القوم آنذاك، فجرى ما جرى على لسان أنصار الشعر وأنصار الكتابة، وتنوّع الخطاب الداخلي للمحاورة بمجموعة من الحجج والدفوع، مميّزاً الشعر بقوة وأفضلية بيانه، وبخصوصية معماره وبنائه باللسان العربي، وتأبّيه على الترجمة لعدم النظير في اللغات الأخرى، ومميّزاً النظام الكتابي بالاكتفاء بنفسه في

دقة نظامه، وقدرته على حفظ الحكمة، وأسرار الصناعات، وبالتالي إمكانية ترجمته بكافة أجناسه إلى لغات أخرى بما فيها الشعر المدوّن مع التسليم بضياع الإيقاع الداخلي أو الوزن الخاص، وبما يمكن أن يضيع بفعل التداول، وذلك لاتفاق اللغات في خلق الموائل والصور والعلامات للدلالة على المعاني.

ومن المؤسف والمجحف في حق هذه المحاورة نسبة الآراء الواردة فيها مباشرة إلى الجاحظ، كما أنّ الانسياق وراء بُناها السطحية يوقع في التضارب والخلل الكثير حول مفهوم الذات والغير، ويقضي بحضر تجوُّل ثقافتنا ومفاهيمنا، ويؤدّي إلى العزلة ورفض ثقافة ومفاهيم الآخر، وهي فكرة خبيثة ما لها من قرار تُشابه تلك الخلية المسرطنة، التي لا تنفك حتى تنشر ما حبلت به في أوصال الجسد، وهي تعني انغلاق الأمة منذ أمد، لنكون بين أمرين أحلاهما أمرّ، ونُوَرَّث مفهوماً مميتاً تدّحضه الحقيقة التاريخية، وتكذبه أقلام المؤرّخين، على مثال المؤرخ الإيطالي حين كتب عن هبة الإسلام للعالم: واعتبر نشأة العلم الإسلامي نتيجة حبّ المسلمين للعالم، وهو من دون شك أكمل مخزون من المعرفة بالعلم الطبيعي راكمته البشرية حتى ذلك الحين، وشغفهم بمحاكاة قسماته الدقيقة. وقد جلست أجيال من الدارسين أمام النصوص العربية تفك شفرة الرموز الغرائبية، في قاعات قراءة تمتد من سوريا إلى البرتغال.[14] وهاهو (الجاحظ) يلامس كيف تمّ لهم ذلك: المتنازع في المسألة والجواب ومناقلة اللسان وهدايته لا تجوّزان مجلس صاحبه ومبلغ صوته، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودوّنت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عّنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا؛ فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم لمَا حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة، وسقطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيماً، والخاطر فاسدا، ولَكلّ الحدّ، وتبلّد العقل.[15] وقد شكا (عبد

14- ينظر: المقدمات التاريخية للعلم الحديث – توماس جولدشتاين. عالم المعرفة. ع: 29 سبتمبر 2003م. ص109 وما بعدها.

15- البارع في الأدب والجامع في حكم العرب المعروف بكتاب الحيوان – عمرو بن بحر الجاحظ –دار المعارف للطباعة والنشر – سوسة بتونس – 1993م. ج1. ص71- 72.

القاهر الجرجاني) من طبقات من الناس يتداولون فيما بينهم ألفاظا وعبارات للقدماء من غير أن يعرفوا لها معنى أصلاً، لأنّ الاعتبار بمعرفة مدلول العبارة لا بمعرفة العبارة.[16]مما يتوجّب بحق إعادة النظر في انبناء المفاهيم المشكَّلة والمورَّثة حول التراث العربي اللغوي، وهي بمثابة الشاهد على الغائب التي ندعو من خلالها إلى ضرورة وجود المؤسسة الثقافية وإعادة القراءة من خلالها لمراجعة بعض الأفكار المقولبة، والمفاهيم المسبقة والجاهزة حول ما لدينا، وما نمتلك من كتب.

والقراءة مستمرة.

16– دلائل الإعجاز في علم المعاني – ت: محمد رضوان مهنا – مكتبة الإيمان – المنصورة بمصر 317 –339.